

ولكن لأنه أوفر حساسية وأكثر شعوراً، والذين يفهمون الشعر على أنه فلسفة أو أخلاق أو يحاولون فهمه على هذا الأساس إنما هم مخطئون في معرفة رسالته، فالشعر لم ينظم ليكون لساناً للفلسفة ولا أداة للأخلاق، وأما هذه الأفكار التي قد نعثر بها عند بعض الشعراء ونظنها فلسفة أو أخلاقاً فليست من هذا الطراز الذي نعهده عند الفلاسفة ولا من المبادئ التي نعرفها عند الأخلاقيين، وفهمها على أنها أخلاق أو فلسفة خطأ من أساسه ونسيان لرسالة الشعر وغايته. والشعر لا يخضع لقانون خاص كقوانين العلم ولا لأصول ثابتة كأصول الدين، وإنما يحتاج إلى قوة التأثير التي تربط بينه وبين قلوبنا وتصل بينه وبين أفكارنا، وذلك لأنه صلة بين صاحبه وبين قارئيه، وبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلته من العلو والإسفاف. وقد نستطيع أن نقول إن التأثير هو كل شيء في الشعر وهو سر خلوده وسبب بقائه على وجه الدهر. وما الشاعر العظيم إلا الذي يستشعر الأشياء التي تلمس قلوب الناس وتؤثر فيها تأثيراً عميقاً، ولقد كان قلب شكسبير - كما يقول الإنجليز - كأنه مخلوق من قلب الإنسانية ذاتها؛ لأنه كان ينظم فيلماً بخطر القلوب وخلجات النفوس، ولقد كان لسانه - كما يقولون أيضاً - كأنه يحفظ كل الكلام الإنساني، لأنه كان يعبر فيحسن التعبير ويؤثر فيجيد التأثير.

ومن الحق أن نذكر أن بعض شعرائنا لا يتناولون بشعرهم ما يتصل بحياتنا اتصالاً مباشراً، ويؤثر فيها ولو تأثيراً طفيفاً، كأنهم في شغل عنها أو في غفلة عن أمرها، ولهذا فشعرهم لا يقع منا إلا موقع الطنين المجوج فهو شعر لا يمتزج بالنفوس، ولا يتصل أى اتصال بالقلوب، وما أشبهه بمدينة متهدمة لها سور لا يكاد يقوم، فلا هي تجذب العيون ولا هو يعطف القلوب. وأكبر ظنى أن هذا الخطأ الفاحش في فهم رسالة الشعر جاء هؤلاء الشعراء من أنهم يعيشون في الشعر معيشة فنية صرفة، فهم لا يستمدون منهم من الطبيعة التي ينظرون إليها، ولا يتخذون ألوانه من الحياة التي يحيونها، وإنما يجذبونه جذباً من دواوين أسلافهم، ويسلبونه سلباً من موضوعاتها وأساليبها، وكأنما فاتهم أن الشعر هو نفس صور الحياة معبرة عن حقيقة الجمال الخالدة وموسيقاه المؤثرة.